

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

دور المساجد والزوايا التربوي عند العلامة أبو القاسم سعد الله

The rôle of mosquées and éducationnel corners according to the scholar Abu al-Qasim Saad Allah

شبيبة مسعود^{1*}، سحوان عطاء الله²

¹جامعة زيان عاشور بالجلفة (الجزائر) مخبر الدراسات التاريخية والانسانية

²جامعة زيان عاشور بالجلفة(الجزائر)

messaoudchabiraz@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/06/01

تاريخ القبول: 2022/04/26

تاريخ ارسال المقال: 2022/03/01

* المؤلف المرسل

الملخص:

تعتبر المساجد والزوايا محور اهتمام الكثير من المفكرين والمصلحين والمؤرخين ولا يخفى دور التربوي التي تقوم به على المستويات الروحي، والتعليمي والاجتماعي، وحتى الجهادي بفضل العلماء والمتدربين على هذه المؤسسات كما كان لهما الأثر الطيب على مستوى التكافل والتضامن الاجتماعي ودفاع عن الهوية الجزائرية وأصالتها وهذا ما كان يذكره العلامة أبو القاسم سعد الله خاصة في سلسلته المشهورة تاريخ الجزائر الثقافي كما أن المساجد والزوايا لعبت دور الأهم في المحافظة على اللغة العربية والقرآن الكريم والسنة النبوية والفقه.

الكلمات المفتاحية: التربية؛ المسجد؛ الزاوية؛ الأصالة

Abstract

Mosques and angles are the focus of many intellectuals, reformers and historians. The role of education is played on the spiritual, educational, social and even jihadist levels Thanks to the scholars and those who are hesitant about these institutions. They also had a good impact on the level of solidarity and social solidarity and defending the Algerian identity and originality. that was mentioned Abu al-Qasim Saad Allah especially in the algeria culture and history as well as mosques and angles played the most important role in the preservation of the Arabic language, the Holy Quran, Sunnah and jurisprudence.

Keywords: Education; The mosque; the corner ;originality

مقدمة:

شهدت الجزائر منذ الوجود العثماني وكباقي بلدان المغرب العربي انتشار العديد من المساجد والزوايا وكثير من الطرق الصوفية، ولعبت هذه المساجد والزوايا أدوار كبيرة في محاربة الجهل والأمية، والمحافظة على أسس الدين الإسلامي من لغة وفقه و قرآن وسنة وأنارت الطريق للمجتمع الجزائري فكان التكافل والتسامح الإسلامي والإخاء هي ميزة المجتمع الجزائري، كما لعبت الدور الأساسي في التربية الروحية.

وفي ظل الاستعمار الذي حصل للجزائر عملت على مقاومة المستعمر ثقافيا ومقاومة مسلحة تبناها كثير من شيوخ هذه المساجد والزوايا، وظلت تحمي تراث الأجداد قبل راية العلم والجهاد وتطهر المجتمع من الشوائب وإبعاده من الخرافات والبدع التي يتخبط فيها.

ولتكلم عن دور هذه المساجد والزوايا يجب في بداية الأمر أن نتكلم عن أهم الطرق الصوفية ونبذة عن حياة أبو القاسم سعد الله وكيف انتشرت هذه الطرق والهياكل التنظيمية بداخلها ونتكلم عن الدور التربوي الروحي ثم ذكر بعض العلماء والثوار الذين سواء تعاقبوا على الزوايا كمؤسسين أو دارسين فيها لتكلم في الأخير إلى الطلبة وطرق

التدريس في القديم والحديث، والمناهج المتبعة ومنه في الأخير يمكن الولوج إلى الدور التربوي لزواية كالمحافظة على الهوية الوطنية والدين الإسلامي، والسعي في الإصلاح والتكافل الاجتماعي، إضافة إلى كرم ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة وذلك بإيواء المحتاجين وتربية المساكين ليكون مسك الختام بالدور الثوري والجهادي لعدة الزعماء لأبناء و مريدي الزوايا والطرق الصوفية الذين هم في الأخير من نتاج الزوايا.

الإشكالية: فما هو دور الزوايا والمساجد التربوي عند أبو القاسم سعد الله حيث اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي.

الفرضيات المعتمدة هي:

للمساجد والزوايا عدة ادوار مختلفة دينية واجتماعية وتربوية
نهدف من خلال هذا المقال إلى معرفة دور المساجد والزوايا في كيفية تربية النشء
المبحث الأول: الطرق الصوفية:

تمهيد: لقد لعبت الطرق الصوفية دورا بارزا في تربية المتعلمين وتدريبهم علة شتى المعارف الثقافية لبلدنا، كما نقلت لهم تراثنا الزاخر بشتى العلوم، علوم اللسان وعلوم الدين خاصة وسنبرز أهم الطرق الصوفية فيما يلي.

المطلب الأول: الطريقة القادرية (الحاج مصطفى الغريسي)

تمهيد: تعتبر الطريقة القادرية قديمة جدا حيث ترجع إلى عبد القادر الجيلالي في العراق، حيث بدأت تنتشر شيئا فشيئا إلى ربوع وطننا العربي والإسلامي.

الطريقة القادرية موجودة قبل مجيء العثمانيين، وقد اختلطت تعاليمها بالطرق الشاذلية وغيرها، وكان العثمانيون قد شجعوا القادرية في أول أمرهم، ومن الملاحظ أن بعض الحجاج الجزائريين من العلماء والصالحين كانوا يتوجهون بعد أداء فريضة الحج إلى بغداد لزيارة ضريح الشيخ عبد القادر الجيلالي وتقديم الهدايا الثمينة إلى حراس الضريح وكانت تلك الزيارة عنهم جزءا مكملًا للحج والرحلة من أجله.

فإن الشيخ الحاج مصطفى المختاري الغريسي قد أسس حوالي سنة 1200 زاوية قادرية بالقيطنة الوادي الحمام قرب مدينة معسكر، وكان الحاج مصطفى من علماء الوقت وصلحائه وكان يتردد على الحرمين حتى بلغت حجاته أربع حجرات، وفي إحداها توجه إلى بغداد ثم رجع وهو عاقد العزم على بناء زاوية تكون مركزا للتعليم ومبعثا للطريقة القادرية⁽⁹⁾.

المطلب الثاني: الطريقة التجانية (أحمد التجاني)

تمهيد: الطريقة التجانية انتشرت في إفريقيا بصورة كبيرة وترجع أصولها إلى الجزائر، ومنبعها من ولاية الأغواط حاليا.

إن مؤسس الطريقة التجانية الشيخ أحمد التجاني، فقد التقى بشيخه الأزهري به في زاوية (ولعل ذلك كان في آيت إسماعيل) بعد عودة الأزهري من المشرق وهناك درس عليه التجاني وأخذ عليه الذكر، ومع ذلك فإن أثر الطريقة الرحمانية على الطريقة التجانية يكاد يكون معدوما، وذلك أن التجاني قد قال بعد حياة مليئة بالتجارب والتجوال

إن ((الفتح)) قد جاء من الرسول (صلى الله عليه وسلم) مباشرة، وأنه لم يكن في حاجة إلى أخذ السند من العلماء الآخرين، ولو كانوا مرابطين، لأن ((المقصود)) لم يأتي منهم .

"ولد أحمد التجاني في عين ماضي سنة 1150م فقرأ بها على شيوخها القرآن وغيره إلى أن بلغ نحو العشرين سنة فتوجه إلى فاس، كما يفعل معظم علماء النواحي الغربية من الجزائر لأخذ العلم على علمائها، وهناك تبدأ حياته التي تذكرنا بحياة محمد بن بوزيان القريب من العهد به، بل والقريب منه جغرافيا أيضا، وفي فاس لا نعرف أن التجاني قد اشتغل بالعلم العملي، ذلك أنه ظل كما تروى المصادر، يحوم هنا وهناك ويتلقى الأوراد والأذكار كما كان يتلقى العلوم الشرعية والأدبية واللغوية فقد أخذ عن الشيخ محمد بن عبد الله التزاني المشهور بالريف مبادئ الطريقة الناصرية ولقي أيضا الشيخ أحمد الصقلي وغيره من ((أقطاب الأولياء)) والتبرك بهم" (10).

المطلب الثالث: الطريقة الرحمانية: (محمد بن عبد الرحمان الأزهري)

تمهيد: إن الطريقة الرحمانية من أهم الطرق المنتشرة في الجزائر واشتهرت بتضحياتها الجسام ضد المستعمر الغاشم. رغم أن الطريقة الرحمانية قد ولدت خلال القرن الثاني عشر هجري (18م) فإنها لم تلعب دورا بارزا دينيا وسياسيا ولم تنتشر في أنحاء الجزائر إلا في القرن الثالث عشر، "ومؤسسها هو الشيخ محمد بن عبد الرحمان الجرجري المعروف أيضا بنسبته إلى زاوية وإلى الأزهر (الزواوي والأزهري) وهو من قبيلة آيت إسماعيل من عرش قشطولة وتاريخ ميلاده غير متفق عليه ولكن بعضهم قدره بين 1127هـ-1142هـ وقد توفي بالجزائر سنة 1208هـ، وبعد أن تعلم بزاوية الشيخ الصديق بن أعراب آيت ايراثن توجه إلى المشرق حوالي 1152هـ حيث ظل مدة هناك طويلة قدرها بعضهم بثلاثين سنة وقدرها آخرون بربع قرن ومن أساتذته في الأزهر سالم النفراوي وعمر الطحلاوي وحسن الجداوي و العمروسي" (11).

المبحث الثاني: العلامة أبو القاسم سعد الله (1930-2013)

تمهيد: هو شيخ المؤرخين واحد الذين قاوموا المستعمر ثقافيا بقلمه الذي أساله كثيرا مؤلفا بذلك زخم كبير من الكتب.

المطلب الأول: مولده ونشأته وأثاره:

تمهيد: أردت بهذا أن أقدم أبو القاسم سعد الله لأنه ساهم بشكل كبير في نقل التراث والحفاظ عليه. ولد بضواحي مدينة قمار، ودرس في جامع الزيتونة ثم إلى القاهرة وكان في بداية عمره مهتما بالأدب وخاصة الحديث منه، فتحمل سعد الله مسؤولية المبادرة في مجال التاريخ خاصة فكان يلقب شيخ المؤرخين، فتحمل سعد الله مسؤولية المبادرة في هذا المجال المعرفي الحيوي، تاريخنا وبحثنا، وكان ينيه تلامذته وقرائه بأن ما كتبه الفرنسيون عن الجزائر كان تاريخا للوجود الاستعماري الفرنسي قبل كل شيء فعل ذلك عام 1965 سنة مناقشته أطروحته حول الحركة الوطنية. "وبالقاهرة دائما ارتبط سعد الله بعلاقة خاصة مع الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء، علاقة أثمرت جمع قصائد ديوان محمد العيد آل خليفة الذي كان الشيخ حريصا على إعداده للنشر وما لبث مادة هذا الديوان أن أصبحت موضوع أطروحة ماجستير، ناقشها الطالب المجتهد سنة 1960 تحت إشراف أستاذه في النقد الأدبي عمر الدسوقي، وقد نشرت الأطروحة بالقاهرة بعد سنة موشحة بمقدمة للشيخ الإبراهيمي" (12).

ويعتبر كتاب تاريخ الجزائر الثقافي من أهم كتبه وحجر الزاوية في إسهامات المؤرخ الراحل وهو يتألف من 10 أجزاء، تغطي العهد العربي الإسلامي من الفتح إلى القرن العشرين، ومع هذا المجهود الكبير له مؤلفات عديدة منها أفكار جامعة، في الجدل الثقافي، وأيضا حصاد الخريف وكذلك أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر من 5 أجزاء.

كما أنه أول باحث يحرز شهادة الدكتوراه في التاريخ على المستوى الوطني ولم يسبقه أحد وذلك سنة 1967 يجمع كثير من الاختصاصات الشعر، مؤرخ، مترجم، الصحفي، رحالة، المحقق، واللغوي والحركة الوطنية الجزائرية، والتاريخ الثقافي للجزائر

عايش كثير من الشخصيات المؤثرة سواء في تاريخ الجزائر أو لها وزن في الحركة الفكرية الثقافية في الجزائر منها البشير الإبراهيمي، العربي التبسي، عبد الكريم الخطابي، بلعيد عبد السلام، محمد العيد آل خليفة.

ومن الأساتذة والباحثين د/ عبد الله ركيبي، د/ أبو العيد دودو، د/ يحي بوعزيز، د/ ناصر الدين سعدوني كان عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لسنوات عديدة رفقة زميله د/ عبد عمار الطالبي، أفنى حياته في التدريس وتنقل في الجامعات العالمية والعربية.

المبحث الثالث: الدور التربوي الروحي والتعليمي للمساجد والزوايا:

تمهيد: لقد مرت الجزائر بمراحل صعبة أكلت الأخضر واليابس خاصة في الجانب التعليمي التربوي والروحي، ولعبت المساجد والزوايا الدور البالغ الأهمية في المحافظة على مقومات الأمة الجزائرية .

المطلب الأول: الدور التربوي الروحي للمساجد والزوايا:

تمهيد: أدى الجانب الروحي والتربوي إلى رفع همّة الجزائري في الدفاع عن بلده.

يعتبر المسجد والزوايا عموما أحد المؤسسات المهمة في حياة الشعوب الإسلامية عموما ومنها الجزائر فهي مؤسسات المرجعية يرجع إليها المسلم في توجيه أو صلح أو فتوى أو شيء يخص المجتمع، بحكم أن القائمين على المساجد والزوايا لهم دراسة بالمعاملات والعبادات التي يحتاجها الفرد من منظور ديني. فهذه الأماكن هناك يشحن الكيان الروحي للفرد والمجتمع وللأمة، ويقوى المسلم صلته بالله وهناك يحس بالموعظة الحسنة وتعاطف إخوته معه.

وكذلك طرق الصوفية تأثر على أتباعها من خلال تلك الزوايا التي تعد المراكز النواة التي تنشأ منها كل طريقة صوفية ذلك أن اجتماع المتعبدين في مكان واحد، مفاده تنظيم شؤون تلك الجماعة، للقيام بعبادات جماعية والخضوع لشيخ أو رئيس يشرف على أداء الجماعة لمهمتها ومن ثم نظام واع موحد يتبع كل عضو من أعضائها لا يحيد، وبالتالي تصبح تلك الزوايا تشكيلا اجتماعيا خاصا يختلف كل الاختلاف عن التنظيمات الاجتماعية الأخرى، يركز فيه على الحياة الروحية⁽¹³⁾.

ففي المساجد والزوايا يتوحد المسلمون في المشاعر والقلوب ويجمعها تصور واحد في المصير المشترك وعلى القيم كوحدة الإيمان بالله، وتحقيق التوحيد وإخلاص النية لله في جميع العبادات وأعمال الجهاد و البر والصدقة، وحتى يتم الإخلاص لله لا بد من الابتعاد عن الرياء أو قصد استرضاء الناس بل رضا الله هو المقصود.

فتلعب الصلاة و دروس المواعظ دور روحيا كبيرا في رواد المساجد والزوايا، كما أن الطرق الصوفية اهتمت بإتباع أورااد معينة بغية سمو الروحي.

المطلب الثاني: الدور التربوي التعليمي للمساجد والزوايا

يمكن القول أن المسجد النبوي أول مدرسة جماعية منظمة عرفها العرب لتعليم الكبار والصغار والتربية على منهج إلهي اجتماعي ينظم العلاقات الاجتماعية ويوحد المشاعر والقلوب فيما مضى كان المسجد يجمع بين الوظائف كلها التربية والتعليم والسياسة وحتى العسكرية والقضائية ولكن بعد تشعب الحياة وتطور، فبدأ تميز والاختصاص يظهر خاصة في عهد عمر بن الخطاب الذي أمر بإنشاء قرب المساجد كتاتيب، وهي أمكنة خاصة يتجمع فيها الأطفال يتعلمون القرآن الكريم على يد شيخ متقن للقرآن حافظ لآياته وسوره، وربما تقاضى بعض العطايا لانشغال بالتعليم وطلب الرزق ليعول نفسه وأسرته.

وهكذا كان إسهام المسجد بين في إنارة العقول وهداية النفوس، وتحقيق التنمية الثقافية الشاملة في المجتمع المسلم وقد كانت المساجد الجامعة تعتبر من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة، وأصبح كثير منها مراكز للحركة العلمية، وأحسن مثال لذلك مسجد البصرة الجامع الذي كانت تتعقد فيه حلقات لمختلف فروع العربية الإسلامية⁽¹⁴⁾.

فالمساجد والزوايا على مدار التاريخ الإسلامي كانت قبلة للعلم والعلماء و شؤون الثقافة والحياة التي تهم المسلم ومنها تعلم القرآن الكريم والسنة النبوية والسيرة النبوية والفقه وغيرها من العلوم .. وأحيانا نجده مجمعا للثقافة في الدين يفد إليه العلماء والطلاب فالتعليم والتربية والمسجد لا يفترقان، ففيه إنارة العقول، وهداية النفوس.

فالتعليم في الجزائر كان حرا ويشمل ثلاث مراحل هذا في وقت الاستعمار، أولى تعطى للكتاتيب ويقبل الناس عليها إقبالا شديدا، أما التعليم الثانوي والعالي فقد كان بالمساجد والزوايا يتولاهما الشيوخ المشهود لهم بالعلم والدراية ولقد اشتهرت العديد من زوايا في ميدان التربية والتعليم أهمها في منطقة الجلفة وبوسعادة زاوية الهامل، ويشترط أن يكون الطالب ذا سمعة حسنة وسيرة صالحة طينة وتعتبر الزاوية مركز لمشايخ الطرق الصوفية المخصصة للعلم والثقافة العربية الإسلامية في مراحل الدراسة.

" فقد كان المسجد هو ملتقى العباد، ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة، إذ حوله كانت تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب، وكان المسجد أيضا هو الرابطة بين أهل القرية والمدينة أو الحي لأنهم يشتركون جميعا في بنائه كما كانوا جميعا يشتركون في أداء الوظائف فيه"⁽¹⁵⁾.

فالجزائر لا تحتوي على معهد متخصص قديما أو مؤسسة قوية للتعليم الإسلامي ذات إشعاع وطني مثل الزيتونة أو الأزهر أو القبروان فكان المسجد والزوايا يقومون بهذا الدور فعوضوا بعض النقص.

" بعد انتهاء الأطفال من المدرسة القرآنية يتوجه الراغبون منهم إلى المساجد والزوايا لمواصلة التعليم متوسط و ثانوي وقد تصل بعض الدروس فيه إلى مستوى التعليم العالي في مراحل متقدمة"⁽¹⁶⁾.

وفي إطار عمل جمعية العلماء المسلمين التي أسسها العلامة ابن باديس نجد أنها وضعت بعض الأهداف ومن أن تصحح العقيدة التي شابها التخلف والخرافية والابتعاد عن الدين الإسلامي ثم نشر التعليم العربي الذي غيبته السلطات الفرنسية طيلة عشرات السنين فمن هنا كان على عاتق زوايا والمساجد دور كبير يقول أبو القاسم سعد الله " وقد استمرت بعض الزوايا في تعليم القرآن الكريم وحتى بعض العلوم الدينية واللسانية، ولكن بقدر محدود جداً، كما كانت مهمة العلماء و وعظ الناس وإرشادهم إلى طريق المستقيم، وبذلك أعادوا للمساجد دورها التربوي والاجتماعي وقد عمل العلماء على تثقيف الشعب في دينه وفي لغته وتاريخه، وبذلك أعادوا له شخصيته التي كادت تضيع وأشعروه بتاريخه، وعلموه الفصاحة والخطابة والقومية والنزوع إلى الاستقلال والحرية"⁽¹⁶⁾.

وكذلك انتشرت المساجد بكثرة في المدن وكانت تقوم بتدريس وتعليم، فمنها مثلاً مدينة بجاية التي كانت مزدهرة خاصة في عهد الأغالبة يقول أبو القاسم سعد الله.

" وتذكر المصادر أيضاً أن بجاية وحدها في عهد الناصر بن علناس كان بها أكثر من مائة مسجد، وكثير منها بأسماء أصحابها، مدرسين، أولياء، علماء.... وما يذكر أن عهد الناصر قد عرف زاوية / مسجد باسم سيدي التواتي وهو رجل صالح نسجت حوله أساطير"⁽¹⁸⁾.

وفي عهد الدولة الزيانية انتشرت حتى المدارس قرب الزوايا والمساجد ومنها مدرسة العباد وذكر أسماء بعض المدرسين فيها من أمثال محمد بن يوسف السنوسي، وابن مرزوق.

" أول مدرسة ظهرت في تلمسان هي مدرسة العباد ضمن المجمّع الذي يضم ضريح سيدي بومدين والمسجد والزوايا، وهي مدرسة أنشأها في الواقع بنو مرين، منافسيهم على حكم تلمسان وبنو عمومهم، فإمكانات بني عبد الواد في التنافس الحضري كانت دون إمكانات جيرانهم الذين ورثوا حضارة الموحدين"⁽¹⁹⁾.

فلما انتشرت المساجد والزوايا أدى إلى تخرج كثير من الطلبة فمنهم من واصل العلم حتى أنه تخرج منهم كثير من الدعاة والعلماء يقول العلامة أبو القاسم سعد الله.

" كما كانت مساجد ومدارس وزوايا قسنطينة تؤدي دورها مدفوعة إلى ذلك بالبركة الصوفية والدعم العلمي من جامع الزيتونة، فكان جامعها الكبير والمدارس الكتانية ودروس العائلات الكبيرة أمثال ابن الفكون و ابن باديس وابن نَعْمون والبوني في عناية تسطع من وقت لآخر"⁽²⁰⁾.

فبجانب حفظ القرآن الكريم يتم تحفيظ بعض المتون في المساجد والزوايا مثل:

- متن ابن عاشر (المرشد المعين على ضروري من العلوم الدين وهو من أشهر المتون والمنظومات الفقهية المالكية)
- متن الرسالة أبي زيد القيرواني (كتاب جامع المسائل الفقه والأدب والعقيدة)
- متن مختصر الخليل في الفقه

واستعمال الغالب للباس واحد العمامة والعباءة أو القميص كما قامت هذه المساجد والزوايا بالحفاظ على الهوية الوطنية عبر الزمن وذلك من خلال المحافظة على ضوابط الدينية والحفاظ على اللغة العربية وبالاعتناء بكتاب الله عز وجل وحافظت على التراث الأصيل عبر الأجيال مثل المحافظة على المخطوطات والأشياء الثمينة التي ورثها الأباء على الأجداد.

المطلب الثالث: دور التربوي الاجتماعي للمساجد والزوايا

تمهيد: أدى دور المساجد الاجتماعي إلى التكافل والترابط بين الجزائريين، وتربية النشئ.

لقد سعت المساجد والزوايا في العمل على الجانب الاجتماعي بشكل كبير وهذا ما نتج عنه مكانة سامية واحترام كبير من طرف الشعب الجزائري اتجاهها برغم من بعض العيوب التي تظهر أحيانا وهذه العلاقات الاجتماعية تكمن في التعامل أهل الزوايا والمساجد مع الناس وغرس تلك الخصال التي تزيد من الترابط والتماسك وبناء المجتمع ككل وتؤدي إلى التضامن بين فئاته.

فظهرت مكانة متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني في الجانب الاجتماعي فقد أدوا أدوارا هامة كإصلاح ذات البين داخل المجتمع والتكفل بالطبقات الهشة والمعوزة، ويعتبر التكافل الاجتماعي أبرز ما اتسم به متصوفة الجزائر خلال الفترة المذكورة لاسيما الإطعام والإيواء لمختلف شرائح المجتمع من طلبة ومرضى و عجزى وفقراء ومساكين وعابري سبيل وغيرها⁽²¹⁾.

إن سر الاهتمام المسجد بالجماعة يرجع إلى أوامر الدين الإسلامي التي تأمر بالمحافظة على الصلوات الجماعة وأنها أعظم أجرا وأن يد الله مع الجماعة وهذا كله حرصا على وحدة الجماعة بل حتى أن من الأساليب التي اعتمدت في التربية الاجتماعية لتأديب بالحرمان الاجتماعي أو الهجر والمقاطعة.

" وقد اتخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا الأسلوب بأمر من الله، فأمر الصحابة بمقاطعة الثلاثة الذين تخلفوا عن الالتحاق بجيش العسرة الذي وجهه النبي (صلي الله عليه وسلم) إلى حدود مملكة الروم في بلاد الشام في غزوة تبوك"⁽²²⁾ حتى تابوا فتاب الله عليهم وأنزلت سورة التوبة.

كما أن اجتماعهم في كل يوم جمعة، هو تجديد لنصائح وتجديد التوبة مع الله، وتفقد أحوال الجماعة وما يهملها. والحقيقة الشائعة عند أغلب المثقفين أن المتصوفة وعلمائها لم يتفاعلوا مع مجتمعاتهم، وكان أغلب ما يقومون به هو الاجتهاد في العبادة والزهد والعزلة (الخلوة) والاعتماد على التقى والروع والتجرد عن هوى النفس وحب الدنيا والابتعاد عن مغريات السياسة والسلطة، إلا أن هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه بل نجد كثير من علماء الصوفية ونقصد بها علمائها وليس الأتباع أو المتأخرين باسمها، كان لهم دور لا يخفى في الدعوة والإصلاح، واقترحوا كثير من المشاريع ونصائح وأهمها الالتزام بالكتاب والسنة كما كان عليه الرعيل الأول.

إن المتفحص لفحوى معظم النصوص يلاحظ أن المتصوفة لم يتركوا مجالا من مجالات الدعوة والإصلاح إلا واقترحوا بدائل واقعية للخروج من نفق الأزمة وفق سنة التدرج والبناء المرحلي، ولم يركن المتصوفة إلى اعتزال الناس والانشغال بالعبادة كما يرى الكثير، وإنما اندمجوا في محيطهم الاجتماعي و خبروا مشاكله بدقة⁽²³⁾ كما أنهم يرون في الجزائر وطن واحد ومجتمع متوحد على الدين واللغة.

يقول أبو القاسم سعد الله

" ومعظم القادة الصوفية كانوا لا يؤمنون بالحدود السياسية والجغرافيا، وكان الأمير الخطابي وابن باديس وعبد العزيز الثعالبي من زعماء الوحدة المغاربية"⁽²⁴⁾.

المطلب الرابع: التكافل الاجتماعي ودفاع عن البلاد

تمهيد: إن التكافل الاجتماعي سواء في المسجد أو الزوايا يستمد مرجعيته الأولى من النظام الإسلامي الذي يتميز بقدرته على توثيق العلاقات الإنسانية والاجتماعية وللروابط الطيبة النقية لها أثرها في غرس المودة في النفوس وإشاعة الخير في المحيط الإنساني، ولهذا يدعوا الإسلام إلى بذل المال في الصدقة والعطف على الفقراء والمحتاجين والمساكين وقدوتهم في ذلك الرسول (صلى الله عليه وسلم)⁽²⁵⁾.

التكافل الاجتماعي ودفاع عن البلاد: أما استعمال المساجد فقد تخرج كثير من العلماء الذين كافحوا الاستعمار مثل ابن باديس والأمير عبد القادر بل أصبح المسجد ملاذا للعلماء وأهل الإصلاح والتعليم وتربية والإرشاد وتوجيه. "ولكن الأمير عبد القادر مثالا شجع الدروس بين المواطنين في المساجد وغيرها، وكان هو نفسه يقوم بإلقاء درس عمومي عندما لا يكون في حالة حرب مع العدو، وقد رتب في مختلف المدن علماء لهذا الغرض"⁽²⁶⁾. يذكر العلامة أبو القاسم سعد الله في دور الرباطات والصوفية في الدفاع عن الملة الإسلامية من الأخطار التي كنت تترص بالجزائر نقصد بها الأخطار الخارجية فيقول:

" وقد لعبت الطرق الصوفية التي تطورت من الرباطات أو مراكز الحرب في الثغور ضد العدو، لعبت دورا رئيسيا في الدفاع عن الملة الإسلامية زمن الحروب الصليبية الإسبانية البرتغالية وعندما عجزت أو شعرت بالعجز استعانت بمجاهدي الدولة العثمانية ووحدت معهم الجهود ضد الإسبان، بينما المغرب حل المشكل بالتعاون بين الأشراف السعديين وزعماء الطرق الصوفية إلى أن نجحوا في إجلاء العدو عن بلادهم.⁽²⁷⁾

ثم يؤكد أن الدور الذي لعبته تلك الطرق كان قويا مما أدى وأجبر سلطات الاحتلال بتعاون معهم. " وتاريخ الطرق الصوفية في محاربة الاستعمار معروف في حويلات المرحلة، خصوصا في الجزائر التي شهدت أول حملة استعمارية في المنطقة، والطرق التي كان لها القدح المعلن هي الرحمانية والدرقاوية (وهي شاذلية الأصل) والقادرية والطيبية ثم السنوسية "

يقول شيخ المؤرخين عن دور الطرق الصوفية في الجهاد في كتابه حصاد الخريف.

" إن معظم الباحثين في الحركة الوطنية ينطلقون من معادلة محفوظة وهي أن الطرق الصوفية أدت دورها في المقاومة المد الصليبي الأسباني منذ القرن السادس عشر، وكانت الزوايا هي رباطات لهذه المقاومة ومراكز لنشر العلم وتحفيز القرآن وقد استمر هذا الدور الرائد للطرق الصوفية في العهد الفرنسي أيضا عدا قلة منها فضلت (العافية) على المواجهة"⁽²⁸⁾.

لقد سعت سلطات الفرنسية محاصرة الزوايا والتضييق عليها من أجل تجهيل الأمة سعيا منها لطمس الهوية الوطنية وطمس معالم الدين الإسلامي، إلى أن الزوايا سعت من أجل المحافظة على الهوية الوطنية بإقامة نظم تعليمية وتربية النشء يعتمد عليه الوطن في تسيير ذاته.

في كثير من الزوايا كانت مثالا لتضحيات والجمع بين العلم والعمل والتربية مما مكنها من قلوب الناس المؤمنون بدليل أنها كانت قبلة للأهالي والعلماء والشيوخ والأطفال والعجزة والمحتاج واليتيم والمساكين ، فكل العلماء تقريبا نشأوا في المساجد وفي الزوايا كما أنها عملت على المحافظة على التراث وتراث الأجداد منها الكتب والمخطوطات والرسائل معظمها وجدها العلامة أبو القاسم سعد الله في ثناياها.

ولم يقتصر دور الزوايا في صمود الفكري والمقاومة الثقافية ومعارضة كثير من المشاريع المستعمر لنيل من اللغة والدين بل تجاوزت ذلك بدفاع عن الوطن عن طريق المقاومة المسلحة منذ الوهلة الأولى من الاحتلال الفرنسي وكان من نتائج ذلك ثورات المتتالية حتى انتهاء بالثورة أول نوفمبر المجيدة، فكثير من أبناءها الطلبة وجدوا أنفسهم في الجبال كفدائيين أو مسبلين أو كدعائيين لنشر دعوة الجهاد والثورة.

المطلب الخامس: العلامة أبو القاسم سعد الله ورأيه في التصوف

تمهيد: في ذكره عن التصوف والمتصوفة، عرفت بالزهد والتقشف والتضحية بملذات الدنيا في سبيل اللذة الأخرى التي يسعى إليها، فهو لا يأكل المحشيات ولذيذ الأطعمة والأشربة وإنما يكتفي بطعام ما يسد الرمق من كسرة الشعير أو شرب ماء. "كما كان المتصوف لا يلبس الثياب الفاخرة ولا المطرقات ولا المذهبات ولا الخواتم ونحوها، وكل ما يعنيه من ذلك ثياب متواضعة تقيه غائلة الحر والقر ولبس الحذاء الخشن وتلك كانت الصورة المتبادرة إلى أذهان الناس من أهل التصوف في العهد الأخيرة⁽²⁹⁾

رأيه في التصوف: إن صورة التصوف الحقيقي الذي يسميه العلامة أبو القاسم سعد الله التصوف العملي الذي أسسه أبو حامد الغزالي، وأبو الحسن الشاذلي الذي لم يقل بتجرد عن الدنيا وملذاتها، وهو نفسه عاش مكرما في حياته في تونس والقاهرة.

فيكمل الحديث عن التصوف الذي نسميه سلبيا بقوله "وهي صورة تقربهم إلى الدراويش والمجاذيب" وأهل الله " وليست بالطبع هي صورة المتصوف الحقيقي كما رسمها الغزالي وأبو الحسن الشاذلي وغيرهم من كبار رجال التصوف المعتمدين على المعرفة العلمية، فهناك إذن فرق بين صورة المتصوف العالم وصورة المتصوف الدراويش ولسوء الحظ أن كثيرا من متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني "كانوا من الصنف الثاني"⁽³⁰⁾.

فالصوفية الإيجابية هي العملية عند سعد الله تقاوم المستعمر، تشتغل بقضايا التدريس والتربية ودعوة إلى مكارم الأخلاق وتحكم في العلوم بأنواعها ليست التي تدعوا إلى الانعزال.

إذا كان التصوف أصبح وسيلة لجمع الأموال أو التقرب إلى السلطة أو إستغلال العامة هنا يطرح سؤال هل العيب في التصوف أم المتصوفة؟ ونفس الشيء يقال حين ما تنتشر البدع وضلالة وسيادة الجاهل والأدهى هي تحالف مع اللصوص والمفسدين.

فيعطينا سعد الله أحد الذين حاربوا هذه الأفات التي ظهرت مع أحد العلماء الجزائريين، وهو عبد الكريم الفكون في كتابه (منشور الهداية).

حتى أنه ذكر الفكون قول الغزالي في إنحراف متصوفة زمانه وسرد خصائصهم الخارجة عن دائرة التصوف الحقيقي قال : هذا في زمانه فكيف بزماننا.

"ولا نكاد نجد من (الثوار) الذين رفعوا صوتهم ضد إنحراف التصوف من جادته الحقيقية إلا بعض الأصوات، وكان أقواها بدون ريب هو صوت عبد الكريم الفكون الذي انتقد متصوفة عصره بشدة ورمى معظمهم بالزندقة واتخاذ التصوف ذريعة للوصول إلى الدنيا واستغلال العامة، ففي مقدمة (منشور الهداية) أوضح الفكون دواعي تأليفه فقال

أنها انتشار البدع وسيادة الجاهل وكساد العلم وانحراف أهل الطرق الصوفية عن التصوف الحقيقي تحالف هؤلاء مع الظلمة ، واللصوص والولاة الفاسدين "(31).

وفي الأخير أردنا أن نسلط الضوء على دور الزوايا التربوي في الجزائر الذي بدأت معالم الجهل به في ظل التطور الحاصل في العلوم والجامعات وتأثر (نحن نقصد الشباب منهم) بالحضارة الغربية أنساها كثير من موروثنا الثقافي الديني، حتى أننا سمعنا من يقول ليس هناك دور لزوايا في الجزائر في نشاط الثوري ضد المستعمر.

خاتمة:

لقد لعبت الزوايا والمساجد دورا حاسما في نقل الموروث الثقافي للأمة الجزائرية خاصة والإسلامية عامة، وكان من نتاج ذلك زيادة العزيمة والهمة لأفراد الشعب الجزائري في طرد المستعمر، والحفاظ على الهوية المنبثقة عن العروبة والإسلام، ويخلص البحث إلى أننا اليوم نحن في حاجة ماسة إلى تفعيل دور الزوايا والمساجد وإصلاحها على أساس المستجدات الجديدة.

الهوامش:

- 01- عبد الرحمان النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، بيروت، دار الفكر، 1991، ط1، ص 12 .
- 02- العابد ميهوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013/2014، ص 12 .
- 03- سلطان بلغيث، دليل المربين في التعامل مع الناشئين، الجزائر، دار قرطبة، المحمدية، 2007، ط1، ص 121
- 04- عبد العزيز الشهيبي، الزوايا الصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، ب ط، دار الغرب الإسلامي، وهران، 2007، ص 13 .
- 05- نفس المرجع، ص 14 .
- 06- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب ، ج 11 ، بيروت، دار صادر لطباعة، 1956، ص 16 .
- 07- عبد الرحمان النحلاوي، المرجع السابق، ص 14 .
- 08- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب ، ج 10 ، بيروت، دار صادر لطباعة، 1956، ص 86 .
- 09- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830/1500)، ج 1، الجزائر عالم المعرفة، 2017 ، ص 514 .
- 10- نفس المرجع ، ص 510 .
- 11- نفس المرجع ، ص 507 .
- 12- محمد عباس ، أصالة .. جزائرية (مهري - سعد الله)، الجزائر، دار هومة ، 2015، ص 96 .
- 13- جميلة قرين، صوفية الشيشتري بين الأساتذة والمريدين، دفاثر المخبر، دراسات اجتماعية تربوية، منشورات المخبر، جامعة محمد خيضر، العدد 04 جانفي 2009، ص 299 .
- 14- سلطان غيث، المرجع السابق، ص 123 .
- 15- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، الجزائر عالم المعرفة، 2017، ص 246 .
- 16- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، الجزائر عالم المعرفة، 2017 ، ص 575 .
- 17- أبو القاسم سعد الله، حوارات، الجزائر عالم المعرفة، 2011 ، ص 149 .
- 18- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (سلسلة الأولى)، ج 1، ط 1، الجزائر عالم المعرفة، 2015، ص 314.
- 19- نفس المرجع ، ص 377 .
- 20- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، ج 1، الجزائر عالم المعرفة، 2015 ، ص 198 .
- 21- يوسف الطيب، التكافل الاجتماعي عند المتصوفة الجزائري خلال العهد العثماني، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، جامعة زيان عاشور، الجلفة، العدد التاسع، مارس، 2018، ص 364 .

- 22 - عبد الرحمان النحلاوي، التربية الاجتماعية في الإسلام، ط 4، دمشق، دار الفكر، 2012، ص 107 .
- 23- مجموعة من المؤلفين، التصوف السني في بلاد المغرب، ط 2، دار البيضاء، منشورات الزمن، 2013 ، ص 208 .
- 24- مراد وزناجي، حديث صريح مع أ/ د أبو القاسم سعد الله، الجزائر، الخبر بني مسوس، 2008، ص 151 .
- 25- عبد القادر حميش، السلوك والعلاقات الاجتماعية ، جريدة الخبر، العدد 7333، الاثنين 3 فيفري 2014 ص 18 .
- 26- أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي)، ج 3 ، الجزائر عالم المعرفة، 2017، ص 61 .
- 27- مراد وزناجي ، المرجع سابق، ص 164 .
- 28- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ط 1، الجزائر عالم المعرفة، 2011، ص 172 .
- 29- أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي)، ج 1 ، الجزائر عالم المعرفة، 2017، ص 491.
- 30-- أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي)، ج 1 ، الجزائر عالم المعرفة، 2017 ، ص 492.
- 31- أبو القاسم سعد الله، (تاريخ الجزائر الثقافي)، ج 1 ، الجزائر عالم المعرفة، 2017 ، ص 474